مجلة أنساق للفنون والآداب والعلوم
الإنسانية
مؤتمر العلوم وما بعد الجائحة
الإصدار الأول
٢٠٢١ (٥٣-٦٢)

أثر الأوبئة في الخيال الأدبي عبر العصور
(جائحة كورونا أنموذجا)

م.د. نذيرة خير الله جبل

*مدرس دكتور، قسم اللغة العربية، كلية التربية للعلوم الانسانية، **العراق***

البريد الإلكتروني: **Knkoedx@gmail .com**

م.د. نهى جعفر عوفي

*كلية التربية، جامعة واسط، **العراق***

البريد الإلكتروني: **njabar@uowasit.edu.iq**

نشر إلكترونياً بتاريخ: ١٧/١٠/٢٠٢١

This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International License.

الملخص

يمثل النص الأدبي وثيقة اجتماعية مهمة تبقى مؤثرا مهما في قراءات اللاحقين لملامح المجتمع في زمن مضى, فهو يتمثل المجتمع في جميع صروفه وظواهره وما يطرأ عليه من تغيرات وما يمرُّ به من أزمات فقد كونت الجماعات الإنسانية على اختلاف هويتها أدبا كونيا كان قد تشكل ضمن وعي جمعي عندما هاجمته الأوبئة وخلد نفسه ضمن اطار نصوص شعرية او نثرية كتبها الانسان وهو يصارع فكرة الفناء واختط لنفسه سطرا عبر ذاكرة الاجيال والزمن.. فهو انعكاس لشعور الأفراد الذي يتمثل في هموم الجماعة الذي انعكس سلبا أو ايجابا باختلاف الأفراد. فهناك الكثير من النتاجات الأدبية الشعرية والنثرية التي أشارت الى حقبة مظلمة من الزمن لاسيما في النتاجات الغربية مثل اعمال (كافكا) (ت1924) والكاتب الانكليزي دانييل ديفو (ت1731) وادغار الان بو(ت1849) وماكتبه الروائي الإيطالي اليساندرو (ت1837) في روايتيه (الخطيبان وتاريخ عمود العار) اللتان خلدتا للطاعون وويلاته في ايطاليا ولابد من الاشارة الى ان هناك اماكن اكثر تضررا فقد كانت ايطاليا اكثر المدن تضررا بالطاعون قديما وكوفيد 19 في العصر الراهن. وقد خلدت الملائكة وباء الكوليرا في قصيدتها التي تنازعت ريادة قصيدة التفعيلة مع السياب. لقد تركت الاوبئة اثرها في الخيال الأدبي بطرق مختلفة بعضها كان يجسد ثيمة المقاومة والآخر كان ينسج خيوط النهاية ويرزح تحت وطأة اليأس ورثاء النفس وكلاهما كان ينسج الوان الخوف والقلق من النهاية وإن لم يفرد الأدب دراسات خاصة وتنظيرات محددة لذلك النتاج سوى ما قدمه الفرنسي ريكور في مؤلفاته إلا إننا نجزم بأن

ذلك النتاج كان قد أرخ بطريقة او بأخرى لمدن وأزمنة مختلفة في النتاج الأدبي والنثري.

الكلمات المفتاحية: الخيال، الخيال الأدبي، النص الأدبي، الشعر، النثر، كافكا، نازك الملائكة، الرواية.

Abstract

Start: The Greek philosopher Abguer? said "Man can be safe from everything except pandemic. Human beings live in a city with no fences. The literary text represents an important social document which stayed an important effect for the following people's readings for the society in a preceding time. It represents the society for all its features and the phenpmenon of what had happened to that society including the changes and the crisis. So, human beings groups formed a litreture despite thier variety which is in turn formed a social awareness when the pandemics attacked them. So, they mortlized themselves by the literary texts they wrote as they struggling and surviving. Literary texts werethe reflections of the individuals' feelings that represented by the suffers of a group which reflected passively or positively on different individuals. Therefore, there have been many literary and poetic works which referred to a dark period especially in the Europeian literature such as; FranzKafka (1924), the English writer Daniel (1731), Edgar Allen Poe (1849), and what was written by the Italian novelist Alessandro Baricco (1837) in his novel (Storia Della Colonna infame) which mortalized the plauge and its effect on Italy. It is also necessry to refer to places which were much affected in Italy by Covid 19 in the recent time. Almaeka (Apoetess) also motalized Cholera Disease in her poem which was challanging Alsaeeab. Pnedemics have left an effect on the literary imagination through different ways some of it represents the resistance and fighting while the other showed the end and defeting under the feelings of desperation. Both of them showed the kind of fear and anxiety of the end. Though there has been few works and theoretical works about this regard except what has been given by the Frech Recor in his literary works but we confirmed that these works have mortalized the pandemics as shown in the present paper.

*** المقدمة**

لابدّ لنا قبل الولوج إلى موضوع البحث التعريف بمفردة الخيال، **فالخيال لغة:** اسم، الجمع أخيلة، وخيلان، الخيال: الطيف، والخيال: ما تشبّه لك في اليقظة والمنام من صورة، والخيال هو إحدى قوى العقل التي يتخيل بها الأشياء، ونرى أن المعجمات لم تختلف في تعريف مفردة الخيال لغة بل تشابهت في تعريفها.

أما الخيال اصطلاحاً: فهو" تشكيل الصور الذهنية أو الهيئات أو أوجه التشابه مع الأشياء" واستعمال " اللغة بطريقة وصفية لتمثّل أفعالاً وأشخاصاً وأشياءً وأفكاراً".

تناولنا في هذا البحث أثر الأوبئة في الخيال الأدبي عبر عصور مختلفة ومتباينة في الخصائص والسمات، من خلال

التقاط الصور الفنيّة والإبداعية في الشعر والنثر، وقد قسمناه على مبحثين:

* أثر الأوبئة في خيال الشاعر عبر عصور مختلفة

فالشاعر هو إنسان يمتلك مهارة خاصة في وصف الكلمات مع بعضها، لكنّه خارج هذه الناحية لا يسترعي انتباهنا بشيء، فالشاعر ابن بيئته يستمد صوره الشعرية وأخيلته منها؛ لذا نجد أنّ ذلك الخيال الشعري يختلف من عصر لآخر، ومن شاعر لآخر بحسب الظروف المحيطة بهم، فالشاعر الجاهلي يقلقه الوجود لكنّه يستسلم للقدر المحتوم فيعرض معاناته بما تملي عليه مخيلته الأدبية، ومن ذلك قصيدة أبي ذؤيب الهذلي الذي فقد أولاده الأربعة في وقت واحد لأنّهم تعرضوا لمرض الطاعون، فأنشد قائلاً:-

أمن المنون وريبها تتوجع ... والدّهر ليس بمعتب من يجزع
قالت أميمة ما لجسمك شاحباً ... منذ ابتذلت ومثل مالك ينفع
أم ما لجنبك لا يلائم مضجعا ... إلا أقضّ عليك ذاك المضجع
فأجبتها أن ما لجسمي أنّه ... أودى بنيّ من البلاد ودودعوا
أودى بنيّ وأعقبوني حسرة ... بعد الرقاد وعبرة لاتقلع
ولقد حرصت بان أدافع عنهم ... فإذا المنيّة أقبلت لاتدفع

فأبياته الشعرية تعرض فاجعته وما ألمّ به من حزن بروح الاستسلام المطلق من غير ذكر لأسباب الوباء بل أطلق العنان لمشاعره وعاطفته وخياله الشعري. ثم يذكر الصراع مع الوجود من خلال عرض صورة ثور الوحش الذي يتعرض لأنواع من المخاطر، ومنها الصياد ومخاطر الطبيعة من حوله:

وغيمة من قانص متلبب ... في كف جشء أجش وأقطع
فنكرنه فنفرن وامترسن به ... عوجاء هادية وهاد جرشع
فرمى فألحق صاعديا مطحرا ... بالكشح فاشتملت عليه الأضلع
فأبدهن حتوفهن فهارب ... بذمائه أو بارك متجعجع
والدهر لا يبقى على حدثانه ... مستشعر حلق الحديد مقنع

فنجد الشاعر في أبياته مستسلماً للنوائب والبلاء و" الصورة الشعرية في الشعر الجاهلي ليست مجرد تزيين أو تلاعب أو تفنن في كيفية صوغها بالتشبيه أو الإستعارة، أو غير ذلك كما يراه القدماء وأكثر المحدثين. إنّ الصور كانت طريقة الشاعر في التفكير بوجوده وتغيير هذا الوجود"، واتضح ذلك في خياله الخصب ويتضح ذلك من خلال استعمال اسلوب الاستعارة عندما شبّه المنية بالحيوان المفترس (أنشبت أضفارها) ومن هنا يتبيّن لنا " أنّ البيئة الجاهلية بيئة حتميات فكلّ شيء فيها محتوم ومقدّر، بشكلٍ قطعيّ، ولا سبيل إلى الخروج من هذه الحتميات"، فخيال الشاعر يدرك بأنّه قد يصاب بالوباء أيّاً كان نوعه يقول زهير بن جناب الكلبي:-

ألم ترَ أنّ الدّهر يومٌ وليلةٌ ... وإنّ الفتى يسعى لغاريه عانيا
يروح ويغدو والمنيّة قصره ... ولابدّ من يوم يسوق الدواهيا
ضلالاً لمن يرجو الفلاح وقد رأى ... حوادث أيّام تحط الرّوابيا
أصبنَ سليمان الذي سُخّرت له ... شياطين يحملن الجبال الرواسيا

فهو يتوقع الوباء والبلاء والحوادث في كل وقت، لاسيما أنّها أصابت من قبله، ومنهم سليمان الذي سُخّر له كل شيء؛ لذا فالحوادث تعصف به بين الحين والآخر.

بينما نجد أن الشعر الإسلامي انصرف لذكر الحروب والنكبات والدفاع عن العقيدة والخصومات، وما شابهها.

وتوجه الشعر في العصور اللاحقة لذكر الوباء ومن ذلك ما عرف عن الشاعر ابن الوردي واسمه عمر المعري الكندي توفي في " في السابع عشر من ذي الحجة سنة تسع وأربعين وسبعمائة من الهجرة النبوية، ومات مطعوناً في الطاعون العام بحلب بعد أن عمل فيها مقامة أسماها النبا في الوفا" فقد ذكر ذلك الوباء قائلاً: **"الله لي عدّة عند كل شدّة، حسبي الله وحده، أليس الله بكافٍ عبده، اللهم صلّ على سيدنا محمد وسلّم، ونجنا بجاهه من طعنات الطاعون وسلم، طاعون روع وأمات، وابتدأ خيره من الظلمات، يا له من**

زائر، من خمس عشر سنة دائر، ما صين عنه الصين، ولا منع منه حصن حصين، سلّ هندياً في الهند، واستند على السند، وقبض بكفيه وشبك على بلاد أزبك...

يا أيّها الطاعون إن حماة من خير البلاد ومن أعزّ حصونها

فذكر الشاعر أثر الوباء ومدن اقتحامه ذاكرا اسمه الطاعون، ملتجأً إلى الله عائذاً به منه، و لم يتوقف ذكر الشعراء والأدباء لأسباب الوباء وابتلاءاته إلا إنّ ظلال البيئة لم تتوقف ليستمد منها الشاعر صوره الشعرية الإبداعية ومن ذلك المتنبي الذي ذكر الحمى واصفاً إيّاها بزائرة الليل، قائلاً:-

عَليلُ الجِسْم مُمْتَنِعُ الْقيَامِ شَدِيدُ السُّكْرِ مِنْ غَيرِ المُدَامِ
وَزَائِرَتِي كَأَنَّ بِهَا حَيَاءً فَلَيْسَ تَزُورُ إِلَّا فِي الظَّلامِ
بَذَلْتُ لَهَا الْمَطَارِفَ وَالْحَشَايَا فَعَافَتْهَا وَبَاتَتْ فِي عِظَامِي
يَضِيقُ الْجِلْدُ عَنْ نَفَسِي وَعَنْهَا فَتُوسِعُهُ بِأَنْوَاعِ السَّقَامِ
إِذَا مَا فَارَقَتْنِي غَسَّلَتْنِي كَأَنَّا عَاكِفَانِ عَلَى حَرَامِ
كَأَنَّ الصُّبْحَ يَطْرُدُهَا فَتَجْرِي مَدَامِعُهَا بِأَرْبَعَةٍ سِجَامِ
أُرَاقِبُ وَقْتَهَا مِنْ غَيْرِ شَوْقٍ مُرَاقَبَةَ الْمَشُوقِ الْمُسْتَهَامِ
وَيَصْدُقُ وَعْدَهَا وَالصِّدْقُ شَرٌّ إِذَا أَلْقَاكَ فِي الْكُرَبِ الْعِظَامِ

فوصف الشاعر وباء الحمى بالفتاة الخجول التي تزوره ليلاً، ويسترسل في وصفها وفعلها ومراقبته لها، ولعلّ التطور الحضاري والعمراني والثقافي بل والترف الذي كان في عهد العباسيين هو الذي أمدّ الشاعر بتلك الصورة الرقيقة بعيداً عمّا عهدناه في العصر الجاهلي من خشونة الحياة وبداوة الشاعر الذي ألف صعوبة الحياة، فالخيال الشعري لا يتوقف بل يتطور بتطور الحياة الإنسانية فيبدع الشاعر والأديب في التقاط الصور المألوفة وصوغها بقالبٍ إنساني غير مألوف الا في بيئته، "إنّ الفن الطبيعي في الأدب العباسي أبعد نظراً وأعمق خيالاً، وأدقّ شعوراً منه في الأدب الأندلسي، ورغما عن أن الأدب الأندلسي أنصع ديباجة وأرقى أسلوباً وأدقّ تصويراً".

ولا ينفك الشعراء بذكر الوباء والبلاء ففي العصر الحديث نجد أنّ نازك الملائكة تصف الكوليرا قائلة:-

في شخص الكوليرا القاسي ينتقم الموت
الصمت مرير
لا شيء سوى الترجيع
حتى حفار القبر ثوى لم يبق نصير
الجامع مات مؤذنه
الميت من سيؤبنه لم يبق سوى نوح وزفير
وغدا لاشكّ سيلقفه الداء الشرير

فالشاعرة وصفت حالة الدمار التي حلّت بالمجتمع الإنساني بصور واقعية وخيال واسع استوعب كل حالات الدمار، فكأنه دمار شامل أوقف مفاصل الحياة الحيوية، هذا في الشعر بينما النثر فسيأتي الحديث عنه لاحقاً.

*** أثر الأوبئة في الخيال الأدبي في النثر**

شكل النثر بجميع فنونه دورا مهما في تمثل المجتمع ونقل تقلباته بجميع أنواعها, وقد كان للفن الروائي النصيب الأكبر في هذا الشأن. فمنذ إرهاصات الرواية الأولى كانت تمتاح مادتها من مشكلات المجتمع المختلفة, وكلما تطورت اقتربت أكثر من المجتمع, فعايشت مشكلاته بمختلف أنواعها.

وكان من أخطر ما هدد البشرية على مر العصور, كابوس الموت المؤطر بالأوبئة فأرخت له الرواية بالكثير من الأعمال التي بقيت شاهدا على تلك المأساة, فقد رافق الإنسان هاجس الخلود والعدم منذ الأزل, ذلك الهاجس الذي كان محور ملحمة البطل كلكامش وهو يفتش عن الخلود الأبدي, وإذا كان الإنسان يرتبط ارتباطا مباشرا مع فرضية السماء في

توقيت أجله في يوم مجهول, فإن الوباء كان قد واجه الجماعة بموت محقق وهو يحصد الأرواح جملة بلا رادع.

وبما أن الأدب هو انعكاس حقيقي لكل ما يطرأ على المجتمع من تقلبات سياسيو واجتماعية فقد كان وثيقة تاريخية مهمة لتتبع تلك التقلبات.

فلا ريب أن الخيال الأدبي يستمد مادته من إطار الجماعة الذي يمثل الفرد, وعليه فقد تمثل النص الأدبي عبر خيال الفرد وهو يجسد خوف الجماعة شعرا كان أم نثر ليشكل أدبا عالميا يجسد تداعيات تلك الأوبئة وما خلفته من ويلات الفقد أولا والفقر وشلل مفاصل الحياة ثانيا.

وقد تتبعنا مسيرة الرواية وهي تطرح تلك الثيمة وتلمسنا ملامحها الفنية وأطر عرضها وقد قسمناه على ما يأتي:-

أولا: الوباء والرواية خيال يتجسد خارج السياق الزمني

تتعرض الإنسانية في زمن الوباء للرعب والخوف واستطالة من التفكير في طرق النجاة المفترضة من كابوس الموت.

في ذلك الوقت ينصب اهتمام الفرد-أيا كان- على كيفية النجاة حتى الفنان بدوره يصبح فردا مشلول التفكير في مجتمع يخوض أقسى معاركه مع المرض الذي يعجز الطب بكافة علومه ونظرياته من الوقوف بوجهه, أمام موت الجماعة وعجز الطب عن إدراك البشر يصبح الموت فكرة شاملة للجميع دون استثناء, ولذلك كتب أدب الأوبئة خارج السياق الزمني, وبعد انتهاء الأزمة بسنوات.

رواية (الطاعون) للروائي الجزائري الفرنسي ألبير كامو مثال على ذلك, فقد كتب كامو روايته بعد قرن من اجتياح الوباء لمدينة وهران الجزائرية, وقد أشار إلى ذلك بعبارة غاية في الفلسفة والعمق: "إن كل ما يستطيع الإنسان أن يربحه في معركة الطاعون والحياة, هو المعرفة والتذكر".

المعرفة والتذكر, معرفة حيثيات الوباء وآلية الموت والإيمان بالقدر(لايمكن لقط مصاب بالسرطان, دهسته سيارة مسرعة أن نقول أنه مات بالسرطان).

الانقلاب النفسي الذي يتعرض له الفرد والمجتمع هو ماتقدمه تفاصيل تلك الرواية والحقيقة فأن جميع الروايات التي قدمت ثيمة الوباء هي حقل خصب للدراسات الأدبية والنفسية كم قال– روباك- فإن علم النفس والأدب يحققان ثنائيا مميزا في تناول النص الأدبي ومايحيط به من ظروف.

يصاب الخيال الأدبي بالشلل وهو يدور في زوبعة الكارثة ,فإن آنية الحدث تفرض على الفنان أن يدور في دوامة التفكير بالخلاص من الهلاك الذي ما إن يأمنه, يطلق العنان لخياله في تجسيد تداعيات تلك الكارثة ونسج تفاصيلها بأبعاد عاطفية ورمزية وفلسفية.

وعلى هذا الأساس فإنه يمكننا القول أنه ليس لدينا الآن أدبا ناضجا يمثل جائحة العصر (كورونا) لأننا مازلنا في منتصف الأزمة سوى القليل من النصوص المرتبكة على صفحات السوشال ميديا, فقد انشغل الجميع بذهول الفقد وهاجس الفقدان.

وقد شكلت مرحلة الحجر الصحي بيئة مناسبة لإعادة تسليط الضوء على تلك الروايات التي خاضت موضوعة الوباء, في محاولة للتعرف على الظروف التي مرت بها تلك المجتمعات, وكيف مرت تلك الأزمة بسلام.

على أن نهاية رواية (الطاعون) تستشرف قضية تعاقب الأوبئة على المجتمع على اختلاف تسمياتها وحيثياتها, ففي الوقت الذي احتفل به سكان المدينة (وهران الجزائرية) بانكشاف أزمة الوباء كان الدكتور (ريو) ينظر إليه من منظور آخر مختلف تماما: "والواقع ان ريو, إذ كان يستمع إلى صيحات الفرح والجذل التي كانت تتصاعد من المدينة, كان يتذكر أن هذا الجذل كان دائما مهددا, ذلك أنه كان يعرف ماكان هذا الجمهور الفرح يجهله, وأن بإمكان المرء أن يقرأ

في الكتب أن قُصيمة الطاعون لاتموت ولاتختفي قط, وأنها تستطيع أن تظل عشرات السنوات نائمة في الأثاث والملابس, وأنها تترقب بصبر في الغرف والأقبية والمحافظ والمناديل والأوراق التي لاحاجة لها, وأن يوما قد يأتي يوقظ فيه الطاعون جرذانه, مصيبة للناس وتعليما لهم, ويرسلها تموت في مدينة سعيدة".

يشير الطبيب إلى نقطة مهمة في هذا الشأن وهي قضية استمرارية الوباء ولكن بصور مختلفة ومواصفات خاصة بكل حقبة زمنية على حدة.

ثانيا: معطيات الوباء وتكثيف الخيال

يصبح الخيال أكثر نشاطا وهو ينطلق من نقطة النهاية, نحو بداية جديدة بعد زوال الوباء والشعور بالأمان والنجاة من الموت الجماعي, بل إنه شعور بالتفرد والتميز يبلغ أوجه عندما يكون الكاتب كان قد عايش تلك المحنة ونجا منها.

يصبح الخيال هنا أكثر دقة ووعيا بحجم لكارثة, والحقيقة فإن روايات الوباء لا تؤرخ له بقدر ما تهدف إلى نقل معاناة المجتمع عبر سرد حكايات عاطفية وتداعيات اجتماعية أثرت في الفرد, وغيرت مسار حياته تماما.

على أن تلك الأزمات كانت قد تفاعلت مع الظرف الاجتماعي عبر علاقة الحاكم والمحكوم, فقد أثارت الكثير من التساؤلات عما إذا كانت الحروب العالمية قد غيرت وسائلها, وجنحت إلى نوع جديد من الحروب الباردة التي كلفت العالم الكثير.

يجد الفنان نفسه مكلفا بمسؤولية كاملة في نقل تلك المعاناة مما يجعل خياله الفني أمام وظيفة دقيقة في نسج تلك الحكايات مع الحرص على نقل جميع التفاصيل المحيطة بها من ظروف اقتصادية وسياسية, بصورة تتواءم وحجم المعاناة أي انه يقوم بدوره بكل أمانة بنقل الحدث أكثر منه رغبة في إثارة المتعة والمقبولية عند قراء النص.

وأتصور أن معطيات الوباء واحدة تنطلق منها نتاجات مختلفة كل نتاج يمثل حقبته الزمنية, ولكن نقطة الانطلاق واحدة ومتشابهة, قراءة قصيرة في نص من رواية (دفتر أحوال الطاعون) للروائي الانكليزي (ديفو) نلمس من خلالها تلك الفكرة:" في يوليو1665 شرعت السلطات المحلية بلندن في تطبيق قوانين جديدة منها وقف إقامة كل الولائم العامة, خاصة تلك التي تقيمها الشركات, ووقف تقديم وجبات العشاء والطعام في المطاعم والحانات, والأماكن التي تشهد أنشطة ترفيهية يشارك فيها العامة لحين عمل تنظيم جديد ينظر في إجازاتها".

يستعرض (ديفو) إجراءات تحجيم الوباء ومحاولات القضاء عليه من خلال حظر التجمعات في الأماكن العامة, وبما أن الرواية هي فن المجتمع وديوانه فلابد من أن توثق حال المجتمع مع الأوبئة التي ضربته, ولذلك فقد قدم (ديفو) مقدمة تاريخية تفصيلية للأماكن التي اجتاحها المرض, تشعر القاريء بالقشعريرة بسبب الخراب الذي أصاب تلك الأماكن بسرد ينتظم على أنه واقع ملموس عبر حلقات من الخيال السردي المتقن, فقد حرصت الرواية على أن تكون فن المجتمع الذي يستوعب تقلباته ولذلك فهي لم تستقر على حال.

وفي الوقت نفسه فإن تلك الروايات وهي تنقل الحقيقة لاتنقلها مجردة بل تدل تلك التفاصيل عملية فلترة وتكثيف تزاوج فيها بين الواقع والخيال, ومن المعلوم أن الأوبئة تنهش أول ماتنهش الطبقات المطحونة التي تكون طرق الوقاية شبه مستحيلة التنفيذ لديها, فإن الرواية بدأت من هناك من المهمشين والمسحوقين طبقة العمال والفقراء طبقا لإحصائيات منظمات الصحة العالمية.

ثالثا: الوباء ثيمة تناولتها الرواية بأطر مختلفة

كانت حركة المجتمع وتقلباته الاقتصادية التي تمر بها البلدان الموبوءة مادة دسمة للفن الروائي الذي تناوله بطرق

وثيمات مختلفة بعضها عن الآخر, ففي الوقت الذي تناولت روايات الطاعون تلك الثيمة بسوداوية وألم, وتفاصيل تقدم صورة مؤلمة للمجتمع وهو يعاني ويلات الفقد والفراق, والتقلبات الاقتصادية التي تنعكس سلبا علة طاقة الفرد داخل المجتمع, تناولت روايات أخرى الموضوع من منظور عاطفي بحت فيه شيء من الطرافة, ففي رواية (الحب في زمن الكوليرا), من خلال العنوان يتصور القارئ أنه سيمر على مشاهد قبيحة تصف الوباء والموت بالجملة ولكن على العكس تماما يكون حضور الوباء طريفا إذ اعتمد (فلورينتو) الشخصية الرئيسة الوباء خدعة الكوليرا لينفرد بحبيبته (فرمينا) فقام برفع راية الوباء الصفراء ليغادرها جميع من فيها لكنها أحدثت فوضى عارمة في المدينة, في محاولة للانفراد بحبيبته على متن السفينة بعد ان فرقت بينهما العادات والتقاليد وقوانين المجتمع الطبقي: "في ذلك الأسبوع بالذات حمل ابنته إلى رحلة النسيان لم يقدم لها أي تفسير, سوى أنه اقتحم غرفة نومها وشاربه ملوث بالغضب المختلط مع السيجار الممضوغ, وأمرها بأن تجهز أمتعة السفر, سألته الى أين سيذهبان فأجابها: إلى الموت".

الرواية تعرض صراعا من نوع آخر, إنه صراع الطبقية التي تحكم المجتمع , يبدو أن ماركيز أراد أن يقول:-

إن الطبقية التي تقد سلاسل العلاقات الإنسانية أخطر بكثير من أزمة الوباء التي سرعان ماتنكشف ويعود المجتمع إلى ممارسة تفاصيل الحياة اليومية.

ربما يكون الوباء كذبة, تطلقها جهة ما من أجل منافع شخصية, كما فعل (فلورينتو), فالرواية خطاب من بين الكثير من الخطابات الموجهة من المرسل إلى المتلقي.

ربما يشير إهمال تفاصيل الخراب الذي يخلفه الوباء في المدينة إلى رغبة الفنان في تخفيف وطأة الخوف والرعب من الأوبئة وهي تجتاح المدن كأنها كابوس, فكانت قصة الحب الخالدة التي عاشها(فلورينتو وفيرمينا) حتى الثمانين من العمر هو نوع من أنواع التفاؤل وبث الطاقة الإيجابية, طاقة الحب والصراع من أجله, فقد حرصت الرواية أن تظم بين تفاصيلها شخصيات وحوادث وعلاقات مؤطرة بزمان ومكان لتوجيه رسالة إلى المجتمع.

وفي الوقت نفسه ورد مرض الكوليرا في رواية (الموت في البندقية) للألماني مان التي صدرت في عام 1922, تدور أحداثها حول روائي عجوز يدعى (أشنباخ) الذي يسافر من (ميونيخ) إلى (البندقية) يلتقي خلال تلك الرحلة ب شاب وسيم يدعى (تاديو) فيقع بغرام مثلي وينظر إلى (تاديو) نظرة الجمال المثالي المقدس:" تغلغل أشنباخ في ظهر أحد الأيام خلف المراهق الجميل في متاهات وسط المدينة الموبوءة, لم يعد يعرف كيف يتوجه, ذلك أن كل أزقة المتاهة وقنواتها وجسيراتها وساحاتها تتشابه ... فتش الأفق في ثلاثة اتجاهات, أمامه مباشرة ومن الجانبين, على طول الرصيف الضيق والقذر لكن دون جدوى".

الكوليرا في رواية (مان) تغزو مدينة الجمال فتحولها الى مدينة الموت والخوف والدمار وهي تصور العربات تلتقط الموتى من الشوارع والأقبية لتصور لنا ضدين مختلفين تماما هما (القبح والجمال) في آن واحد.

بينما يتجسد (إيبولا76) بصورة رجل يتخفى أو شبح بعبارة أدق يخطف أرواح الناس وبالذات كل شخص يتمسك بالحياة, يدور أحداث الرواية بين دولة الكونغو وجنوب السودان, في منطقة أنزازا بالذات حيث عشش الكارتون والفقر المدقع الذي يطحن الناس: "تتبع إيبولا القاتل, لويس نوا ظهر ذلك اليوم الحار من شهر أغسطس عام 1976وهو يتحرق شوقا ليسكن دمه, كان لويس من منطقة أنزازا الحدودية في جنوب السودان عامل نسيج بسيط, في مصنع صغير لإنتاج الألبسة القطنية يملكه ويديره محارب سابق في جيش المتمردين على سلطة الخرطوم المركزية".

تجسد الرواية (الفايروس) على أنه شخصية تترصد, وتتحين, وتقتل فهي تسبغ عليه سمات بشرية لتقدمه بصورة أكثر رعبا وهو يعقل مايفعل ويحدد فرائسه لينقض عليهم وبالأخص من يتعلقون بالحياة ولديهم أفق يتسع للكثير من الطموحات والأمنيات, فإن تجسيدها يعطيها تميزا داخل النص يجعله متفردا بين الكثير من الموجودات المشابهة له أو المختلفة عنه. ذلك التميز الذي أضفاه الروائي على (الفيروس) يدعم ثيمة الرواية بنقطتين مهمتين:-

١- تجسيد (الفيروس) كأنه شخصية حقيقية يعطي للخطر بعدا واقعيا يترك أثره في نفس المتلقي وهو يتعامل مع (الفيروس) المستجد كوفيد19.

٢- يتجسد خطر الإصابة بطريقة دقيقة جدا فـــــ(الفايروس) ذكي يهاجم بدقة وقصدية.

لم تكن الأوبئة بشيء جديد على البشرية فقد عاصرت الإنسان منذ القدم وحصدت الكثير من الأرواح, أرخ لتفاصيلها الأدب وقدم لها صورا مختلفة وأطرها بأطر مختلفة, بين حب, ورعب, وقتل, وفراق ولكن الجدير بالذكر أن كل تلك الأعمال أرخت لها بعد أن انتهت تلك الأزمة, وانجلت غمتها, وقد عادت إلى الحضور من خلال محاولة الفرد المعاصر للاطلاع على تجارب السابقين وأخذ فكرة عامة عن الأوبئة التي هاجمت البشرية منذ القدم.

*** الخاتمة والنتائج والاستنتاجات**

حاولنا في بحثنا هذا أن نسلط الضوء على الخيال الأدبي في زمن الأوبئة وما أفرزه من نتاج شعري ونثري على مر العصور واتخذنا من كورونا أنموذجا للانطلاق منه وإن لم يكن له حضور في المعالجة التطبيقية بوصفه مستجدا, ولعلنا استطعنا أن نحدد ملامح الخيال في تلك الأزمات وأن نخلص إلى مجموعة من النقاط فيها خلاصة جهدنا وما توصل إليه:-

١- في الشعر الجاهلي لم يذكر الشاعر إلا حزنه وقلقه عند التحدث عن آثار الوباء ولميسمه بل يكتفي بذكر ماخلفه من ألم وحزن مبيّناً استسلامه للقدر المحتوم.

٢- في العصر العباسي، أجاد الشعراء والادباء بذكر تفاصيل دقيقة لأعراض الوباء مستلهمين صورهم الشعرية من حالة الترف والثراء والتطور الحضاري والعمراني التي ألهمتهم رقة الألفاظ ودقتها في الوصف فضلاً عن خيالهم الذي جعل من ذكر الوباء زائرة، كما ذكر المتنبي.

٣- في العصر الجاهلي كان ذكر الوباء ممتزجاً في الرثاء بينما نجده في العصر العباسي قد انفصل عن الرثاء إلى رثاء الذات وقد يكون هذا الرثاء في الشعر أو النثر كالمقامة... وغيرها من الفنون النثرية.

٤- في العصور الحديثة والمعاصرة يسترسل الشاعر بذكر الوباء وحالة الدمار، وهنا نلحظ أن خيال الشاعر استوعب تلك الحالة ليوضح أثرها وآثارها بخراب كل ما يدور حولهم وكأنّ الصور الحية التي حولهم صورة هامدة جامدة تشهد توقف الحياة مع انتشار الأوبئة والأمراض.

٥- تنضج مادة الخيال وتصبح جاهزة للتعبير عن الكارثة بصور مختلفة بعد زوال الوباء, كأن الخيال كان في صدمة يستدرك نفسه بعد زوال العاصفة, فيجسد تداعياتها وهو يتطلع اليها عن بعد لا وهو يدور في قلبها.

٦- تتصل الأعمال الأدبية بخيط واحد شكل لها إطارا عاما, تفاصيل التباعد والحجر والهروب من الموت, وما يخلفه الوباء من دمار نفسي واجتماعي واقتصادي.

٧- أنتجت تلك الأوبئة أدبا خاصا بها, وهو أدب عالمي كونته المأساة الإنسانية على اختلاف هوياتها, فقد تشكل في وعي جماعي عندما هاجمت تلك الأوبئة الإنسان والموت المحقق فخلد نفسه ضمن إطار نصوص شعرية أو نثرية كتبها الإنسان وهو يصارع الموت.

٨- تركت الأوبئة أثرها في الخيال الأدبي بطرق مختلفة بعضها كان يجسد ثيمة المقاومة والآخر كان ينسج خيوط النهاية ويرزح تحت وطأة اليأس ورثاء النفس وكلاهما كان ينسج خيوط القلق والخوف من النهاية.

٩- كشف أدب الأوبئة عن خلجات الذات البشرية في زمن الكارثة, وهي أرضية خصبة تستحق أن يفرد لها دراسة خاصة أو دراسات خاصة وهو ينفتح على العلوم الأخرى جميعا من فلسفة واجتماع واقتصاد.

١٠- يشكل الوباء ذاكرة خصبة للخيال الأدبي تنفتح بعد عبور العاصفة او الأزمة وتمتاح من سابقتها في تجسيد الصورة, ففي الأزمة الراهنة ومع ضرورة العزلة في سبيل النجاة عادت محركات البحث لتسجل بنسبة عالية من القراءة واستعادة بعض الأعمال التي خلدت حقبة زمنية من الوباء مثل أعمال كافكا والبير كامو وغيرهم ممن أنتج أدب الكوارث.

*** المراجع**

الأوبئة والتاريخ (المرض والقوة والإمبريالية), شلدون واتس, ترجمة وتقديم: أحمد محمود عبد الجواد, مراجعة: عماد صبحي, المركز القومي للترجمة, الطبعة الأولى2010.

إيبولا76, أمير تاج السر, دار الساقي بيروت, الطبعة الاولى2012.

بناء الرواية دراسة بنيوية شكلية, د. سمر روحي الفيصل, دائرة الثقافة والإعلام – الشارقة, ط1, 2012.

التفسير النفسي للأدب, عز الدين اسماعيل, مكتبة غريب, القاهرة الطبعة الرابعة, د.ت.

الحب في زمن الكوليرا, جابرييل غارسيا ماركيز, دانية للطباعة والنشر والتوزيع - دمشق, 2006.

الخيال الأدبي، نور ثروب فراي، ترجمة حنا عبود، دراسات نقدية عالمية، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، دمشق/ 1995م.

الخيال الشعري عند العرب، أبو القاسم الشابي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، جمهورية مصر العربية،2013م.

ديوان ابن الوردي، العلامة الأديب زين الدّين آل حفص عمر بن مظفر بن عمر الوردي الشافعي(ت 749هـ)، تحقيق: أ.د عبدالحميد هنداوي، دار الآفاق العربية، الطبعة الأولى 2006م.

ديوان أبي ذؤيب الهذلي، تحقيق د. أحمد خليل الشال، مركز الدراسات والبحوث الإسلامية ببور سعيد، ط1، 2014م.

ديوان زهير بن جناب الكلبي، صنعة الدكتور محمد شفيق البيطار، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، 1999م.

ديوان أبي الطيّب المتنبي، علّق على حواشيه وفسر كلماته اللغوية: سليم إبراهيم صادر، د.ط، طبع برخصة نظارة المعارف الجليلة، بيروت، 1900م.

ديوان نازك الملائكة، دار العودة، بيروت، د.ط ، 1997م.

الرواية العربية (مقدمة تاريخية ونقدية), روجر آلن, ترجمة حصة ابراهيم, المجلس الأعلى للثقافة المشروع القومي للترجمة, ط2, 1997.

الشاعر الجاهلي والوجود، دراسة فلسفية ظاهراتية، د باسم إدريس قاسم، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت،2014م.

الطاعون, ألبير كامو, ترجمة الدكتور سهيل إدريس, دار الآداب, بيروت, الطبعة الأولى, 1981.

فلسفة الشعر الجاهلي، دراسة تحليلية في حركية الوعي الشعري العربي، د.هلال الجهاد، دار المدى للثقافة والنشر، الطبعة الأولى، بيروت، 2001م.

لسان العرب للعلامة ابن منظور (ت 711هـ)، اعتنى بتصحيحه: أمين محمد عبدالوهاب، محمد الصادق العبيدي، دار أحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، الطبعة الثالثة،1999م.

معجم المصطلحات الأدبية، إعداد: إبراهيم فتحي، التعاضدية العالمية للطباعة والنشر، الجمهورية التونسية، الطبعة الأولى 1988م.

موت في البندقية, توماس مان, ترجمة وتقديم كميل قيصر داغر, أزمنة للنشر والتوزيع – الدوحة, الطبعة الأولى 2015.

نظرية التوصيل في الخطاب الروائي العربي المعاصر, أسماء معيكل, دار الحوار للنشر والتوزيع, 2010.

وظيفة الوصف في الرواية, عبد اللطيف محفوظ, الدار العربية للعلوم, ناشرون, منشورات الاختلاف – الجزائر, ط1، 2009.

الكرنتينا- روايات الأوبئة تعود إلى الضوء, جريدة الوطن, محمد الدعيفس

https://www.alwatan.com.sa/article/1053355